الدرس9: الأبعاد التداولية للاستعارة

تمهيـــــــد

تهتم التّداولية بدراسة الاستعارة من حيث هي نشاط لغوي يحقق التّواصل بين بني البشر وخاضع لظروف إنتاج الخطاب بصفة عامة، متجاوزة بذلك حدود النّظرية الدّلالية التي لم تتعدّى في تفسيرها للآلية الاستعارية شقّها الدّلالي، أي اعتبارها آلية لغوية دون الأخذ في الاعتبار النّسق العام الذي يحكم الآلية الاستعارية والخاضع بدوره لشروط تداولية.

أوّلا: البعد التداولي للاستعارة

لعل دراسة **الاستعارة من منظور تداولى** يثرى الدراسات الحديثة للاستعارة بما يقدم من زوايا بحثية لم تلتفت إليها الدراسات الاستعارية من أمثال النظرية التفاعلية والنظرية الاستبدالية التى تهتم بدراسة الاستعارة معزولة عن سياقها التواصلى ، ذلك لأن الرؤية التداولية تتعامل مع الاستعارة فى سياقها الواقعى ، وهذا ما يميزها عن النظريات السابقة ، وإن كانت الرؤية التداولية للاستعارة تتفق فى بعض جوانبها مع نظريتى : " السياقية ، والحدسية " وإن اختلفت عنهما فى كثير من الوجوه.1

إن دراسة الاستعارة من خلال رؤية تداولية تتشعب فى عدة زوايا لتعدد الأفكار التداولية التى ترتبط بالاستعارة وترتبط بها الاستعارة ، منها فهم الاستعارة بوصفها وسيلة لغوية تواصلية ، وتفسيرها على **المستويين البلاغيين : مستوى التواصل والتفاعل البشرى والمستوى الأدبى والفنى** ، وترجمتها وما يترتب على عملية الترجمة من الانتقال من سياق التلقى الذى أنتجت فيه الاستعارة إلى سياق آخر ، وما يتعلق بذلك من اختلاف السياق الثقافى والاجتماعى ، ويأتى التمييز بين المعنى الحرفى (**معنى الجملة ، المعنى النحوى**) والمعنى التداولى (**المعنى السياقى ، معنى المتكلم**) بمثابة الفكرة الأم التى تجمع بين القضايا المثارة فى دراسة الاستعارة وفق رؤية تداولية ، ومن هنا **جاءت معالجة سيرل للاستعارة من خلال عرضه للتمييز التداولى بين المعنى النحوى للجملة ، والمعنى التداولى** الذى يتخذ قصد المتكلم أساساً له ، ويشير بداية إلى أن هذين المعنيين يتطابقان فى المنطوق الحرفى ، أما فى المنطوق الاستعارى فإن الأمر يختلف اختلافاً بيناً.

ثانيا: تعريف الاستعارة

إن الكلام المباشر الواضح له ميزة أنه يوصل المعنى بأقصر الطرق، كقولك مثلًا معبرًا عن الفرح: أنا سعيدٌ، ولكن قد يلجأ آخر إلى استخدام أسلوب مختلف للتعبير عن المعنى فيقول: أطير من الفرح، هو في

الحقيقة لا يطير ولكنه فضّل استخدام أسلوباً مجازياً بدلًا من الأسلوب المباشر، وفي اللغة العربية باب اسمه الحقيقة والمجاز، ويُقصد به التعبير عن فكرة أو أمر ما بوضوح ومباشرة، أما المجاز فهو الانزياح عن المستوى المباشر في الخطاب إلى أسلوب آخر مثل استخدام التشبيه، أو الاستعارة التي تعد من المجاز اللغوي.[2]،**فهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له، وهي في الأصل عبارة** عن تشبيه حذف منه المشبه وأداة التشبيه ووجه الشبه، وبقي المشبه، والاستعارة هي مبالغة في التشبيه، وإدعاء معنى الحقيقة في الشيء.

وقيل أن الاستعارة مجاز لغوي، ومن قال ذلك فسرها أنها موضوعة للمشبه به وليس للمشبه، والبعض قال أنها مجاز عقلي، وفسر ذلك على أن استعمالها فيما وضعت له.

وعرفها علماء البلاغة بقولهم

تعريف الاستعارة عند البلاغيين القدامى

1. **عرفها الجاحظ** على أنها "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامَه ."

2. **وقال ابن قتيبة**: "هي اللّفظ المستعمل في غير ما وُضِعَ له إذا كان المسمّى به بسبب من الآخر."

3. **أما المبرد** "نقل للّفظ من معنى إلى معنى."

4. **وعرفها ابن المعتز** على أنها:"استعارة الكلمة لشيء لم يُعرف من شيء عُرِفَ به."

5. **وقال عبد القاهر الجرجاني**: "أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللّغويّ معروفا تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وُضِعَ."

6. **فخر الدين بن خطيب** قال: "ذكرُ الشيء باسم غيره وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه."

ثالثا: أركان الاستعارة

الاستعارة نوع من المَجاز اللغويّ في علم البلاغة، وهو يشابه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الآخر المختلف والذي تودّ إيصاله الجملة، ويتكوّن مما يأتي:

1- **المُستعار منه:** المعنى الأصلي الذي وُضعَت له العبارة أولاً، وهو "المُشبَّه به".
2- **المُستعار له:** المعنى الفرعي الذي لم تُوضَع له العبارة أولاً وهو "المشبَّه".
3- **المُستعار:** أي اللفظ المَنقول بين المُشبَّه والمُشبَّه به، أو هو وجه الشَّبَه أو العلاقة بينهما.

4- **القرينة:** هي التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقيّ فتغيره، وهي إمّا لفظيّة وإمّا حاليّة تُبيّن الحال،:

مثال: قال الحجاج في إحدى خطبه:" إني لأرى رؤوسًا قد أينَعت وحان قطافها، وإني لصاحبها".

المستعار منه: وهو هنا الثمار، فالقصد قوله " إني لأرى رؤوسًا قد أينعت كالثمار وحان قطافها"، لكن حُذف المشبه به.

المستعار له: وهو هنا الرؤوس وقد ذُكر المشبه في الجملة.

المستعار: وهو هنا الإيناع استعدادًا للقطف، ويقصد بذلك موعد قطف الثمار عندما تنضج، وموعد قطع الرؤوس عندما تتمرد، فالجملة هنا الهدف منها التهديد.

القرينة: كلمة أينعت وكلمة قطافها، فهاتان الكلمتان دلالة على أن الجملة فيها استعارة وليست على وجه الحقيقة، لأن الرؤوس لا تينع أو تنضج ولا تُقطف على الحقيقة.

رابعا: أنواع الاستعارة

تُقسَم الاستعارة من حيث ذكر أحد أطرافها إلى:

1- **استعارة تصريحيّة:** هي ما ذُكر فيها أو صُرِّح فيها بلفظ المُشبَّه به، ومثاله قول الله تعالى: **(كِتابٌ أَنزَلناهُ إِلَيكَ لِتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ)ابراهيم/1**، فهنا كلمتا الظُّلُمات والنور جاءتا لتدلّان على الضّلال والنور، وهنا جاء المُشبَّه واضحاً لذا هي هنا **تسمى استعارة تصريحيّة**، والقرينة حاليّة لأنّها تُفهم من المعنى،وكقول المتنبي أيضًا في وصف سيف الدولة: وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي ففي هذا البيت، استُعِيرت لفظتا البحر والبدر **(وهما المشبه به)**، لتدلّا على كرم سيف الدولة ورفعته **(وهو المشبه)**، فالمشبه أيضًا واضح هنا.

مثال آخر: أو كما قال ابن المعتز:

جمع الحق لنا في إمام ... قتل البخل وأحيا السماحا

ونجد في هذا البيت استعارة حيث استخدم تشبيه "قتل البخل" بدلاً من "إنهاء مظاهر البخل"، واستخدم **"أحيا السماحا" بدلاً من "إحياء الكرم بين الناس."**

أو في قول الشاعر إيليا أبو ماضي:

نَسِيَ الطينُ ساعَةً أَنَّهُ طينٌ ... حَقيرٌ فَصالَ تيها وَعَربَد

وَكَسى الخَزُّ جِسمَهُ فَتَباهى ... وَحَوى المالَ كيسُهُ فَتَمَرَّد

واستخدم الشاعر إيليا أبو ماضي أصل الإنسان وهو الطين للتعبير عن الإنسان، فحذفَ المُشبّه و صرّح بالمُشبّه به.

2- **استعارة مكنيّة:** هي التي حُذِف فيها المُشبَّه به ورُمِز له بشيء من لوازمه، كقول الشاعر الخزاعيّ: **لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المَشيب برأسه فبكى**

شبه الشاعر هنا المَشيب وهو (**الشَّيب**) بإنسان يضحك، وقد حذف المُستعار منه (**وهو المشبّه به الإنسان**)، ورمز إليه بأمر من لوازم الإنسان أي يرتبط بالإنسان وهو (**الضحك**).

مثال آخر: قوله سبحانه وتعالى ((**ولا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولًا معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله**)) **البقرة/235.**

ونرى هنا استخدام الاستعارة المكنية عند الحديث عن العلاقات الزوجية، لتجنب ذكرها بشكل مباشر، إذ أن فيها أمر موجه من الله سبحانه وتعالى إلى المسلمين ممن يريدون الزواج من النساء المطلقات أو من مات زوجها، بالانتظار بعد انقضاء فترة العدة، قبل التقدم للخطبة أو الزواج.

أو كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: ((**بُنِي الإسلامُ عَلى خَمْسٍ: شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله، وأنَّ مُحمَّداً عَبْدُه وَرَسولُهُ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البيتِ، وصَومِ رَمضانَ**)). رَواهُ البُخارِي ومُسلمٌ.

وشبه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام بالبناء القائم على خمس أركان، فذكر المشبه ولم يذكر المشبه به، وذكر لفظ مقترن به والمتمثل في كلمة " بُنِي."

3-الاستعارة التمثيلية

وهي تركيب استعمل في غير معناه الأصلي، أي بتشبيه صورة بصورة، والإتيان بمثل في غير موضعه من أجل الاستفادة من المعنى في حالة مشابهة للمضمون الرسالة أو المثل، وترك ذكر المشبّه، مثل "لكل جواد كبوة."**أو كما قال الشاعر**:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً ... فلا تظنن أن الليث يبتسم.

وهنا تشبيه لحالة المخدوع في عدوه، بحالة الفريسة التي تظن أن انكشاف أنياب الأسد، معناه الابتسام.

أو كما قال المتنبي

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مرّا به الماء الزلالا

ويقال هذا البيت لمن لا يتذوقون الشعر ويفهموه، إذ شبه حال من لا يتذوق الشعر بالمريض الذي إذا شرب الماء العذب وجده مرًا، أي أن العيب ليس في الشعر ولكن في ذوقهم وإدراكهم لجمال الشعر.

الاستعارة من حيث اللفظ يقسِّم البلغاء الاستعارة أيضاً من حيث لفظها إلى:

1- **استعارة أصليّة**: أي أن يكون اللفظ المُستعار اسماً جامداً غير مُشتقّ، مثل قول الشاعر: عضَّنَا الدهر بنابه ليتَ ما حلَّ بنابِهْ شبه الشاعر هنا الدهر بحيوان مُفترِس، ثم حذف المُشبَّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العضّ، والدهر اسم جامد مشتق من "دَهَرَ".

2- **استعارة تبعيّة**: هي أن يكون اللفظ المُستعار اسماً مشتقّاً، أو فعلاً مثل قول الله تعالى: (**وَلَمّا سَكَتَ عَن موسَى الغَضَبُ**)، فلفظة (**سكت**) مستعارة، وهي بدل كلمة انتهى، وقد شُبِّه الغضب بإنسان، ثمّ حُذِف المُشبَّه به وهو الإنسان، وقد رُمِز إليه بشيء من لوازمه وهو السكوت.

تطبيق: بيّن نوع الاستعارة فيما يلي

قال تعالى: ((**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**))الفاتحة/6.

قال المتنبي يصف دخول رسول الروم على سيف الدولة الحمداني:

وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

وقال الشاعر

كل زنجية كأن سواد ال لَيل أهدى لها سواد الإهاب

قال الشاعر في وصف مزيَّنٍ:

إذا لمع البرق في كفه أفاض على الوجه ماء النعيم

قال بعضهم في وصف الكتب

لنا جُلَساء لا نمل حديثهم أَلِبَّاء مأمونون غيباً ومشهدا

قال الشاعر

رأيت حبال الشمس كفة حابل تحيط بنا من أشمل وجنوب

قال المتنبي في ذم كافور

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بِشمْنَ وما تفنى العناقيد

(إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّة)

قال أبو العتاهية مهنئًا المهدي بالخلافة

أَتَتهُ الخِلافَةُ مُنقادَةً إِلَيهِ تُجَرِّرُ أَذيالَها

ويقول الشاعر أحمد شوقي

دقَّاتُ قَلبُ المَرءِ قائلةٌ لَهُ إنَّ الحَياةَ دَقائِقٌ وثَواني

سمعتُ العصفور يغني.، رأيتُ الجندي يفترس عدوه.

الهوامش

1-أحمد صبرة : التفكير الاستعارى فى الدراسات الغربية ، دار الصديقان للنشر والإعلان ، الاسكندرية 1998م ص 65.

2-أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة: في المعاني والبيان والبديع، صفحة 8-4. بتصرّف